جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت - كلية الآداب
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا \ ماجستير

رثاء المدن والمماليك في الاندلس
(مرثية ابي البقاء الرندي انموذجًا)

إعداد إ . د : ياسر رشيد حمد

١٤٤٧هـ ٢٠٢٦م

الرثاء لغةً :

يقول ابن منظور في لسان العرب: "رَثَيْتُ الميْتَ رَثْياً ورِثاءً ومَرْثاةً: بَكَيْتُه وعَدَّدْتُ مَحاسِنَه".

الرثاء اصطلاحا :

هو فن أدبي يعبر عن الألم أو بكاء الميت وتعداد حسناته وتمجيد صفاته بالشعر والنثر.

الأندلسُ بين رِحابِ النعيم.. وصدمةِ المصابِ الأليم:

لقد كانت الأندلس في أوج تألقها "فردوساً أرضياً" استثنائياً، لم تكن مدنها مجرد قلاعٍ وأسوار، بل كانت حواضرَ مسكونةً بالضوء، ومناراتٍ شيدت صروح الترف المادي والعقلي حتى صار الحجر ينطق شعراً؛ فشمخت قرطبة "بزهراء" قصورها، وتيهت غرناطة بسحر "حمراءها"، وتمايلت إشبيلية كعروسٍ تجلو حسنها على ضفاف واديها الكبير. هذا الثراء الأسطوري الذي فاضت به الممالك الأندلسية لم يكن إلا قشرةً من الزخرف الباذخ سترت وراءها تصدعات الوهن السياسي وتمزق الهوية، حتى استحال ذاك المشهد الوديع إلى زلزالٍ مباغتٍ هزَّ أركان الوجود. وفجأة، تحول "ربيع الأندلس" إلى خريفٍ دامي، وانبرى الشاعر الأندلسي ليوثق بمدادٍ من الجراح مآسي السقوط، حيث انصهرت البكائية الفردية في صرخة جماعية وجدانية، تعبر عن ذعر أمة تُقتلع من جذورها، ليقف ابن خفاجة أمام أطلالها باكياً ذلك التحول المروع الذي أذهب البهاء وأحلَّ الخراب:

عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ العِدَا يَا دَارُ وَمَحَا مَحَاسِنَكِ البِلَى وَالنَّارُ

وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكِ نَاظِرٌ طَالَ اعْتِبَارٌ فِيكِ وَاسْتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا وَتَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الحِدْثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ

لقد كان سقوط المدن الأندلسية هو الارتطام المروّع الذي أفاق معه الأندلسيون من سكرة النعيم على واقع السبي والتمزق، ليمتزج في قصائدهم بريق الأمجاد بمرارة الانكسار، حيث لم يعد الوجع مجرد فقدانٍ للأرض، بل صار اغتراباً للروح في مسقط رأسها، فاستحالت تلك الحواضر التي كانت بالأمس ملاذاً للجمال إلى ساحاتٍ للدموع والذهول، معلنةً ميلاد "رثاء المدن" كأصدق صرخةٍ في تاريخ الأدب العربي، صرخةٌ لا تزال تنزف وجعاً كلما ذُكرت الأندلس.

رثاء المدن والممالك:

ظهر رثاء على تلك المدن التي سقطت في يد الأسبان وانُتزعت من أيدي المسلمين فبكاها الشعراء. أما **الرثاء الثاني** أُطلق على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين إلى الأندلس، فأطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر أسماءً أخرى عُرف بـ (شعر **النكبات** أو **الحزين**).

أما الدكتور شوقي ضيف فأطلق على هذا اللون من الرثاء باسم (**ندب الدول والبلدان**)، فكان القرن الخامس الهجري أحفل عصوره بالصراع الذي أدى إلى سقوط مدن الأندلس وممالكها. فالتجأ الشاعر الأندلسي تارة إلى تسليم الأمر إلى الله لسوء الحال في المدن الساقطة، وتارة إلى الملوك لاستنهاض هممهم، ثم يطيب الشاعر جراحه مخاطباً الرسول محمد (ص) مستمداً منه القوة.

وأيضاً رثا الشعراء مدن الشام وبيت المقدس التي سقطت أثناء الحروب الصليبية , لكن رثاء (المدن والممالك)**تميز** :

بنضج التجربة الفنية وغزارة النتاج الشعري، فبكاء المدن الذاهبة فنّاً أندلسياً أصيلاً تبعاً لثقافة الشاعر وطاقته النفسية.

ويبدو أن أحداث الفتنة لم تقتصر على قرطبة (مركز الخلافة) بل تجاوزتها إلى مدن الأندلس الأخرى منها (خراب البيرة)، فيعلل أبو إسحاق تلك النكبة بكثرة الذنوب وترك الفروض والواجبات.

من أشهر مملكتين نُظمت فيها قصائد الرثاء **مملكة** بني عباد في أشبيلية **ومملكة** بني الأفطس في بطليوس ، فهناك قصيدتان لشاعرين مشهورين هما: ابن اللبانة الأندلسي (في رثاء بني عباد) الذي يصف شجاعة وكرم المعتمد بن عباد ويصفه بأنه الحي الذي يستحق الرثاء في قوله:

سَأُدْمِي جُفُوني بِالسُّهَادِ عُقُوبَةً ... إِذَا وَقَفَتْ عَنْكَ الدُّمُوعُ الجَوَارِيَا

وَأَمْنَعُ نَفْسِي مِنْ حَيَاةٍ هَنِيئَةٍ ... لِأَنَّكَ حي يَسْتَحِقُّ المَرَاثِيَا

أما الآخر ابن عبد الصمد وقد نظمها بعد من وفاة المعتمد بن عباد (٤٨٨ هـ) ويقول:

مَلِكَ المُلُوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِي ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِ؟

ولم يحدث في تاريخ الأندلس أن تسقط مدينة كبيرة مثل (طليطلة) التي وصفت بأنها دار ملك الأندلس (٤٧٨هـ). أما (بلنسية) فقد تمثلت بدخول قائد أسباني هو السيد القمبيطور بعد حصار طويل استمر حوالي عشرين شهراً سنة (٤٨٧هـ)، حيث أرغم قاضيها ابن الجحاف المعافري على التسليم وعقد الصلح. أما شقيقتها (مرسية) سقطت بعد خمس سنوات من سقوط بلنسية وذلك عام (٦٤١هـ)، وأما (أشبيلية) التي سقطت بعدها بأربع سنوات عام (٦٤٥هـ).

لقد وجه الدكتور مصطفى الشكعة إن جملة قصائد رثاء المدن والممالك الأندلسية اتسمت بسمات عامة هي:

١. عزا الشعراء سقوط الأندلس إلى فساد الحكم وظلم الناس.
٢. الحنين للمدن الساقطة واستصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين.
٣. تنبيه العاطفة الدينية ممزوجة بالعاطفة الإنسانية.
٤. اصطناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر.
٥. رثاء الدول من خلال رثاء ملوكها.

وتُعد نونية أبي البقاء الرندي أشهر ما قيل في رثاء المدن والممالك في الأندلس، لأنها تعبر عن تجربة حقيقية عاشها الشاعر وبدأها بحكمة عامة ثم صور ما حل بالأندلس من خطوب عظيمة فيقول:

تقع نونية أبي البقاء الرندي في (٤٢) بيتاً:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

يمزق الدهر حتماً كل سابغةٍ ... إذا نبت مشرفياتٌ وخرصانُ

فاسأل بلنسية ما شأنُ مُرسيةٍ ... وأين شاطبةٌ أم أين جيانُ؟

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

اتسمت نونية أبي البقاء الرندي بأنها:

- انتهت بحكمة عامة.
- رثت مدينة بعينها.
- بدأت بحكمة عامة.
- خلت من النزعة الدينية.

لا يشبه رثاء المدن الأندلسية رثاء أي مدينة عربية أخرى؛ فربما لم يكن هناك أروع من المدن الأندلسية التي قال عنها شعراؤها يوما ...

يقول ابن سفرٍ المريني:

أنهارُها فضّة، والمسكُ تُربتُها والخزُّ روضَتُها والدّرُّ حَصباءُ

وللهواءِ بِهَا لُطْفٌ يَرِقُّ بِـــهِ مَنْ لا يَرِقُّ ويبدو منهُ أهوَاءُ

لم تحلّ بأي مدينة نكبة أشد من تلك التي وقعت بمدنها العامرة، التي فقدت حياتها الدينية والفكرية والحضارية فضلًا عما أصاب أهلها من ظلم وقهر، لقد تعرضوا للقتل والطرد وأُجبر بعضهم على التحول إلى المسيحية، ورأوا بأعينهم مساجدهم وهي تتحول إلى كنائس، وهكذا كتب شعراؤها قصائد باكية تصف المدن المفقودة تارة وتستنهض ملوك المسلمين للدفاع عنها تارة، قبل أن يسكت ذلك الصوت ولا يبقى سوى بكاء أطلال المدن الحسناء والتحسّر على أهلها وقد أُجبر من بقي منهم على العيش بعيدًا عنها.

الخصائص الفنية لشعر رثاء المدن الممالك:

١. تميز هذا الشعر عن الرثاء التقليدي بصدق العاطفة وحرارة الأسى الناتجة عن المقارنة بين مجد الماضي وواقع الانهيار.
٢. ارتباطه بشعر الوقوف على الأطلال؛ إذ يصور الخراب ويقارن بين ازدهار الماضي وكآبة الحاضر وتقلب الدهر مع استحضار ذكريات الزمن الجميل.
٣. تجاوز التعبير الذاتي إلى تمثيل الحزن الجماعي الناتج عن النكبات العامة التي أصابت المجتمع.
٤. اتسم أسلوبه بجودة الصياغة وسلاسة العبارة مع قلة الابتكار في المعاني، لكنها تكتسب صدقها من قوة العاطفة.
٥. ارتبط ظهوره بمرحلة الضعف السياسي في الأندلس، خاصة في عصور المرابطين والموحدين وما بعدها.
٦. يغلب عليه النزعة الدينية والحكمة النابعة من التجارب المريرة.
٧. الإكثار من استخدام أساليب الإنشاء الطلبي مثل: النداء والاستفهام للتحسر والتفجع.